مجلة أبعاد/ مختبر الأبعاد القيمية للتحوّلات الفكرية والسياسية بالجزائر
جامعة وهران2 – المجلد 05 / العدد 02 ديسمبر 2019
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

"المعنى" في تجربة الأمير عبد القادر- قراءة في مؤلف "المواقف"

"Meaning" in the experience of Prince Abdelkader Reading in "Al-Mawqif"

زاير أبو الدهاج[1*]

[1] كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران2 – الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2019/12/23 | تاريخ القبول: 2019/12/26 | تاريخ النشر: 2019/12/31

الملخص:

يمكننا أن نلتمس ذلك التداخل الضمني حتى على مستوى المصطلحات والأدوات والمفاهيم؛ بين تجربة سلوكية/باطنية من جهة وتجربة جهادية/حربية ضمن تجربة واحدة متكاملة،فقد تبنى الأمير طريق التصوف قبل الانخراط في تجربته الجهادية بكثير، بل كان للذوق والالهام والالقاء دورا كبيرا في استراتيجياتها السياسية وخططها الحربية/العسكرية من جهة، كما أن المعارك والحروب التي كان يخوضها دفاعا عن الوطن،كانت حافزا حقيقيا ورافدا مغذيا من جهة أخرى، لتلك الأحوال والمقامات التي كان يعايشها من خلال تجربته الفردية/الباطنية.

كلمات مفتاحية : التصوف؛ الموقف؛ الالقاء؛ الجهاد؛ الوطن.

Abstract :

We can seek that implicit overlap even at the level of terms, tools and concepts; between a behavioral / esoteric experience on the one hand and a jihad / warfare experience within one integrated experience. On the one hand, its political strategies and war / military plans, on the one hand, and the battles and wars that he was fighting in defense of the homeland, were a real incentive and feeder on the other hand, for those conditions and shrines that he lived through through his individual / inner experience.

Keywords : altasawufu ; almawqifu; alailqa'u ; aljuhadu ; alwatn

* الباحث المُرسل: boudi7511@yahoo.fr / مختبر الأبعاد القيمة للتحوّلات الفكرية والسياسية بالجزائر – جامعة وهران2

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

تتناول الكثير من الدراسات تجربة "الأمير" **(1222-1300هـ / 1807-1883م)** بتقسيمها وتجزئتها إلى مراحل زمنية متعاقبة ومختلفة وفق التطورات التي مرت بها حياته بكافة مجالاتها ونواحيها، فتتحدث عن مرحلة أولى تبدأ منذ ولادته في شهر رجب (1222هـ - 1807م)مرورا بمبايعته (1248 هـ - 1832م) ثم طيلة فترة جهاده التي انتهت عام (1262هـ - 1847م)وهو في الأربعين من عمره، ثم مرحلة ثانية وتضم فترة اعتقاله ما بين (1264 هـ -1270 هـ) (1847م- 1852م)، و كذلك فترة استقراره في دمشق بعد السنتين اللتين قضاهما في بروسة بتركيا أين ألف كتابه **"ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"** ثم فترة ثالثة وهي مرحلة تحقق الفتح الكبير حتى وفاته سنة (1300 هـ- 1883م).

وتتحدث في تقسيم آخر عن الأمير المتصوف والأمير السياسي والأمير المقاوم والشاعر ... كل عن حدى، ورغم مشروعية هذا الطرح منهجيا، إلا أنه يمكننا كذلك أن نتحدث عن تلك التطورات التاريخية بأحداثها المختلفة وعن تلك التجربة الباطنية بأحوالها المختلفة إضافة إلى طبيعة الموقف الفلسفي والعقائدي للرجل داخل بنية واحدة كلية تنصهر داخلها كل تلك الأبعاد، فعلى خلاف الكثير من النماذج التي ورغم قيمتها المعرفية، إلا أن مواقفها النظرية وحياتها العملية قد تتناقض في الكثير من الأحيان، فإن موقف الأمير في حقيقته -وانطلاقا من فهم معين للإنسان والوجود- ذو خصوصية واحدة تتكامل فيها في انسجام كبير أفكاره الفلسفية مع منهجه في العقيدة وطريقته في التصوف إضافة إلى طموحه الحربي الجهادي.

وإذا كان من الممكن الحديث عن دلالة لمفهوم **"العمل"** في هذا الموقف الكلي أو عن الأبعاد العملية في تلك التجربة، أو عن تمظهر عملي فعلي بدلالات ذات خصوصية جديدة ومتميزة، فإنه من الممكن جدا أن نتحدث عن تأسيس فعلي وجديد في تاريخ التجارب العلمية الإنسانية.

خاصة وإن تجربة "الأمير" -ورغم أنه وثقها في نصوص نظرية- هي في حقيقتها عملية محضة ترتبط أشد الارتباط بتجربة في الحياة تتمتع بمعنى مزدوج "للعمل" معنى ذوقي باطني من خلال تجربته الصوفية بمجاهداتها ومقاماتها وأحوالها ومعنى جهادي حربي من خلال مقاومته للعدو باستراتيجياتها القتالية ومبادئها الإنسانية النبيلة.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

فإلى أي حد يمكننا أن نعتبر تجربة "الأمير" -ورغم تلك الازدواجية والتي تبدو وكأنها جمعت أكثر المتناقضات حدة وأبعدها شساعة بين عمل تصوفي روحاني باطني قائم على السكينة والطمأنينة وبين عمل حربي جهادي قتالي محفوف بالقلق والحركة والتوتر- نموذجا متميزا لإستراتيجية فريدة في الحكمة والتعقل والسلوك، ولفلسفة حقة للتدبير والعمل؟

وإلى جانب هذه الإشكالية نتساءل:**هل تأسست تجربة "الأمير" الجهادية من خلال "المقاومة" على تجربته الباطنية التصوفية؟ أم أن رحلته نحو الحقيقة بمجاهداتها وأسفارها كانت نتاج لتلك التجربة الحربية التي عاشها بل قادها ضد العدو؟**

في البداية يقف "الأمير" موقفا وسطا معتدلا في مسألة "الجبر والاختيار" فينتقد من جهة الذين غالوا في القول بحرية الاختيار مستدلا بقوله تعالى: ﴿فلَمْ تقْتُلوهُم و لَكنَ اللهَ قَتلهُمْ﴾[1] ﴿ومَا تَشَاؤُون إلا أنْ يَشاءَ الله﴾[2] وقوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الخَلقُ والأَمر﴾[3] إلى غير ذلك مما يدل على انفراد الحق -تعالى- بالفعل، وينكر من جهة أخرى على من يعطل الأسباب "فلا يقول بترك إلا صاحب حال أو جاهل بالطريق والسنة فتارك السبب مع التمكن منه مأزور بترك الحكمة وتعطيل صفة من صفاته تعالى"[4].

وهو بذلك يؤمن بأن القضاء والقدر كله من الله تعالى، وأن الأمر لله من قبل ومن بعد وفقا لمشيئته ويظهر ذلك في كتاب العهد الذي أعطاه للويس نابليون (Louis Napoléon) وتعهد فيه بعدم الرجوع إلى الجزائر

قائلا: عندما أمرني الله بالنهوض نهضت، ولكن عندما أمرني بالتوقف توقفت وعند ذلك فقط تخليت عن السلطة واستسلمت"[5].

---

[1] سورة الأنفال – الآية 17.

[2] سورة التكوير – الآية 29.

[3] سورة الأعراف – الآية 54.

[4] الجزائري عبد القادر،المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار و المعارف،تح:عبد الباقي مفتاح،دار الهدى، الجزائر،ج1،الموقف 165،ص405

[5] تشرشل شارل هنري، حياة الأمير عبد القادر، تر : أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر تونس 1974، ص 267، نقلا عن فؤاد صالح ،الأمير عبد القادر، متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص121.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

ويعبر عن دور القدر في حياته في رسالة أرسلها لصديقه الأسقف دوبوش (Dupuch) رئيس أساقفة باريس قائلا: "...لعلك اكتشفت من خلال حديثنا أنني لم أولد لأكون محاربا ولو ليوم واحد، ومع ذلك فقد حملت السلاح... ما أكثر غموض مغيبات القدر ولم يكن سوى محض صدفة إن وجدت نفسي بعيدا تماما عن الدور الذي حدده لي ميلادي وترتيبي وميولي، وهو الدور الذي طالما تشوقت لاستئنافه والذي لم أزل أصلي إلى الله أن يسمح لي بالعودة إليه، الآن وأنا في خاتمة حياتي الشاقة"[1].

من خلال اعتراف "الأمير" في الرسالتين ،يظهر أن تجربته الجهادية تأسست على تجربته الصوفية ورغم أهمية "الأمير" المقاوم إلا أن ذلك لم يكن إلا مرحلة واحدة فقط لم تبدأ إلا منذ مبايعته وانتهت بانتهاء المقاومة، وفي حين أن ذلك النزوع الصوفي كان قد راوده منذ الصغر وانخراط بذلك في تجربة باطنية اتخذت مسارات متعددة نظرا لاختلاف ظروف الحرب والسلم والأسر والهجرة ثم الاستقرار في دمشق (1248هـ-1832م).

نشأ "الأمير" في محيط ديني حيث تلقى تربية إسلامية في مدرسة الزاوية التي أنشأها والده محي الدين الفقيه المرابط شيخ الطريقة القادرية، ودرس العلوم الفقهية فيها كما تعلق بكتب الصوفية منذ صباه لكن دون انخراط عملي في سلوكهم، يقول: "فكنت في أثناء مطالعتي أعثر على كلمات تصدر سادات القوم وأكابرهم يقف شعري وتنقبض منها نفسي، مع إيماني بكلامهم على مرادهم، لأني على يقين من آدابهم الكاملة وأخلاقهم الفاضلة"[2] ويضرب أمثلة على ذلك، كقول**عبد القادر الجيلي** "معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تؤتوه" وكقول **ذي الغيث بن جميل**: "خضنا بحرا وقفت الأنبياء بساحله" ولم تسكن نفسه إلى المؤولين لكلامهم حتى سلك سلوكهم ومن عليه الله بالمجاورة بطيبة المباركة.

فقد كان متوجها يوما في خلوة يذكر الله تعالى، فأخذه الحق -تعالى- عن العالم وعن نفسه ثم رده وهو يقول: "لو كان **موسى بن عمران** حيا ما وسعه إلا إتباعي" على طريق الإنشاء لا عن طريق الحكاية يقول: "فعلمت أن هذه القولة من بقايا تلك الآخذة وأني

[1] تشرشل شارل هنري، المرجع نفسه، ص 258.

[2] المواقف، ج1، الموقف 13، ص 122

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

كنت فانيا في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم أكن في ذلك الوقت فلانا، وإنما كنت **محمدا** وإلا لما صح لي قول ما قلت إلا على وجه الحكاية عنه -صلى الله عليه وسلم-[1]

وقبل أن تصدر منه هذه المقالة كان في إحدى الليالي متوجها للروضة الشريفة فحصل له حال بكاء فألقى الله -تعالى- في قلبه أنه -عليه الصلاة والسلام- يقول له: "أبشر بفتح" وبعد ليلتين من ذلك كان يذكر الله في الخلوة فأخذه الحق عن نفسه ثم رده بعد أن ألقى إليه قوله: ﴿الآنَ جِئْتَ بالحَق﴾[2]، فعلم أن الإلقاء تصديق للرؤيا ثم أخذ كالعادة عن نفسه مرة أخرى فسمع قائلا يقول: "أنظر ما أكننته حتى كنته" يقول: "بهذه السجعة الجناسية المباركة علمت أن هذه المقولة تصديق للرؤيا السابقة والحمد لله تعالى".

وقد أمرني الحق -تعالى- بالتحدث ب**النعم** بالأمر العام لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقوله: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[3] يقول الجيلي: "كل من اجتمع هو وآخر في مقام من المقامات الكمالية كان كل منهما عين للآخر في ذلك المقام".

ويحذر من الفهم السقيم والمعمم لأحوال أهل الحق -تعالى- أمثاله مبينا سنية منهجهم بقوله: "..واحذر أن ترميني بحلول أو اتحاد أو امتزاج أو نحو ذلك فإني بريء من جميع ذلك ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فإني فهمت منهما ما فهمت أنت وزدت عليك، وكلام الله وكلام رسوله بحر زخار لا نهاية لمدلولاته ولا قرار وكل من قال في مسألة هذا مراد الله تعالى لا زائد عليه أو مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا غير فقد أعظم الفرية"[4].

يصرح "الأمير" في إحدى المواقف عن بعض ما أنعم الله تعالى عليه، أنه ومنذ أن رحمه الله تعالى بمعرفة نفسه لم يكن الخطاب يلقى إلا بالقرآن الكريم الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[5] والمناجاة بالقرآن من بشائر

[1] المواقف، ج1، الموقف 13، ص 123
[2] سورة البقرة، الآية 71.
[3] سورة الضحى، الآية 11.
[4] المواقف، ج1، الموقف 64، ص 197.
[5] سورة فصلت، الآية 424.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

الوراثة المحمدية[1]، ومنها أنه لما بلغ بالمدينة الطيبة وقف تجاه الوجه الشريف وبعد السلام عليه -صلى الله عليه وسلم- وعلى صاحبيه الذين شرفهما الله -تعالى- بمصاحبته حياة وبرزخا، قال "الأمير": "يا رسول الله عبدك ببابك، يا رسول الله كليمك بأعتابك، يا رسول الله نظرة منك تغنيني يا رسول الله عطفة منك تكفيني" يقول: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أنت ولدي ومقبول عندي" بهذه السجعة المباركة وما عرفت هل المراد ولادة الصلب أو ولادة القلب؟ والأمل من فضل الله -تعالى- أنهما مرادان معا، فحمدت الله -تعالى- ثم قلت: "اللهم حقق هذا السماع برؤية الشخص الشريف".

بعد ذلك جلس "الأمير" اتجاه القدمين الشريفين معتمدا على حائط المسجد الشرقي يذكر الله يقول: "وغبت عن العالم وعن الأصوات المرتفعة في المسجد بالتلاوة والأذكار والأدعية وعن نفسي فرأيته صلى الله عليه وسلم ولما دنى مني رجعت إلى حسي، فحمدت الله تعالى ثم جعلت أذكر الله -تعالى- فصعقت كالأولى فورد علي قوله تعالى: ﴿إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا﴾[2] فلما عاد إلى حسه علم أنها دعوة **للإكرام**.

وهكذا أخذ "الأمير" يتوجه بالذكر فيصعق ويلقى إليه القول بالقرآن الكريم في كل مرة ثم يعود إلى حسه وألقي عليه ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾[3] و﴿بشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ [4] و﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ إلا أن يقول: **وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر**.

من هذه الواردات الإلهية والإلقاءات السبوحية والنفثات الروحية، ومن هذه العلوم الوهبية والأسرار الغيبية التي تتجاوز طور العقل وظواهر النقل تتأسس التجربة الباطنية عند "الأمير" على "التفهيم الرباني" الذي يتحقق به التحقيق الذوقي الذي يتجاوز بدوره الإيمان العقلي القائم على الجدل والمناظرة والمنطق والذي انبنى عليه فهم جديد للدين وليس تنكر له، يقول: و"أهل طريقنا ما ادعوا الإتيان بشيء في الدين جديد وإنما ادعوا الفهم الجديد في الدين التليد...ويضيف

[1] قال الصوفية أن : من نوجي بلغة نبي فهو وارث ذلك النبي صاحب تلك اللغة، ومن نوجي بالقران كان وارثا لجميع الأنبياء وهو المحمدي لان القران متضمن لجميع اللغات كما أن مقام محمد – صلى الله عليه وسلم – متضمن لجميع المقامات.الرسالة القشيرية ص:126

[2] سورة الأحزاب، الآية 53.

[3] سورة الحجر، الآية 46.

[4] سورة يونس، الآية 02.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

خذ ما تراه و دع شيئا سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل"[1]

وقد بين الكثير من المواقف سنية المنهج الذي سار عليه، فمن أراد معرفة إله الرسل والأنبياء ومن تبعهم -عليه الصلاة والسلام- فليتبع سننهم ويقف عند حدودهم التي حددوها، يقتدي بهم ظاهرا وباطنا ويضيف إلى ذلك استعمال الأسباب التي وضعها كمل العارفين الداعين عباد الله تعالى إلى معرفته على طريقة الأنبياء، فليواظب عليها فإنه "لا سبيل إلى معرفة الله المعرفة المطلوبة منا إلا بهذه الطريقة لا بغيرها من الطرق العقلية أو الرياضية على غير طريق الرسل وسننهم"[2] ويستشهد بقوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[3].

ويظهر منهجه السني كذلك حين انقطع لمدة سنة ونصف سنة للذكر والتوجه والعبادة في خلوات لما سافر إلى مكة، حيث كانت خلوته الأولى غار حراء بجبل النور، حيث تلقى الرسول -صلى الله عليه وسلم- الوحي لأول مرة ...هناك قطع "الأمير" معارج السلوك لأنه وجد ما يروي ظمأه العرفاني الحاد، ومن خلوة إلى خلوة حتى نزل محلا لصيقا بجدار المسجد في رجب 1820هـ وهو في الأصل بيت أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- وله خوخة في المسجد هي التي قال عنها الرسول -صلى الله عليه وسلم- "كل خوخة في المسجد تسد إلا خوخة أبي بكر" نظرا لمكانته الرفيعة في نفس النبي ولسبقه في تصديق الرسالة، يقول ابنه محمد: "فانقطع الأمير في ذلك المحل المبارك مدة شهرين، فقويت بها معارفه وانكمشت له الحقائق القرآنية والأحاديث النبوية وتحقق له الفتح الكبير"[4].

وقد ترقى "الأمير" في مقامات تجربته وتقلب في أحوالها بمجاهدات عملية باطنية وظاهرة كمجاهدة التقوى والاستقامة والكشف والاطلاع وفقا لطريقة الشرع، فالحسنى عنده في قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾[5] هي الطريقة المثلى طريقة

[1] المواقف ج1، الموقف 209، ص482.
[2] المواقف ج 1، الموقف 173، ص 418.
[3] سورة الشورى، الآية 131.
[4] محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و تاريخ الجزائر، ج 2، ص 192- 193.
[5] سورة الليل، الآية 06.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

الأنبياء وورثتهم، وقوله تعالى: ﴿سنيسره لليسرى﴾[1] أي سنستعمله في الأسباب الموصلة إلى النجاة والمعرفة بالله على طريق الأنبياء والأولياء التي توصل إلى المشاهدة والمكالمة "وإنما سماها يسرى لأنها تؤول بسالكها إلى الأصل"[2]ورجوع الأشياء إلى أصلها أسهل وأقرب، ولذلك قيل الرجوع إلى الأصل يكون بأدنى سبب وقيل الرجوع إلى الأصل أصل. يقول:

عليك بالشرع فألزم طريقه فحينما سار سر و إن يقف فقف
إن قال ليس كمثلي قل هو ذا أو قال لي أعين فقل بذا كلفي

فليس في الدنيا إلا ما أمر به الشارع، ولا شر فيها إلا ما نهى عنه، وهو يؤكد في الكثير من المواقف ويكرر التأكيد لكي يجد كل الشبه والاتهامات التي ألصقت بأهل الطريق وشوهت غايتهم وشككت في حقيقة معارفهم أن "هؤلاء أهل الله الذين تابعوا الاستقامة والمشي على الكتاب والسنة"[3].

ومن ذلك ينطلق "الأمير" في فهمه **للنفس** من قوله تعالى: ﴿وقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾[4] فتزكية النفس هو عمل تطهيري لها من دعواها ما ليس لها، وكفها عن غصب كمالات غيرها والتحلي بها حتى تترك جميع الدعاوي الكاذبة "لأن النفس تدعي الوجود مع الحق تعالى، وتغضب الكمالات التابعة للوجود وكل كمال تابع للوجود والعلم والقدرة والاختيار والفعل والترك وتدعي التحلي بها وهي كاذبة في ادعاءاتها"[5] لأن الوجود وكل كمال تابع للوجود فهو خاص بالحق -تعالى- لا شريك له في ذلك فمن عرف أنه العدم الظاهر وتحقق له ألا علم ولا قدرة ولا فعل ولا اختيار له، و أنه محل لفعل الحق -تعالى- فهو الفاعل فيه وبه، فهو الذي زكى نفسه وطهرها من الجور والفجور وهذا معنى (قد أفلح من زكاها) ومن لم يعرف هذا وادعى خلافه فهو الذي دس نفسه وهذا معنى (وقد خاب من دساها).

[1] سورة الليل، الآية 07.
[2] الموقف 177، ص 425.
[3] المواقف، ص 248.
[4] سورة الشمس، الآية 09-10.
[5] المواقف، الموقف 52، ص 176.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

ويرى أن "الإحسان" في قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[1] بمعنى أحسنوا لأنفسهم وأحسنوا أي دخلوا حضرة الإحسان، فإن الحق -تعالى- لا يحسن أحد إليه ولا يسيء، كما قال تعالى: "من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها"، فالإحسان هو الحضور مع الله تعالى في الأعمال الصالحة وذلك يستلزم إخلاص العمل من كل شوب، وهذا الحضور فهمه من قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث جبريل -عليه السلام- "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" أما الزيادة التي اعتقدت الأشاعرة أنها رؤية الله بالأبصار في دار القرار، هي المعرفة والشهود للائقان بالدار الآخرة وقال تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، والعبادة عمل لأن القصد الأول من خلق المخلوقات هو العمل، والعمل معرفة "**كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت خلقا** وتعرفت إليهم فعرفوني بي".

وتظهر دلالات العمل بين التجربتين الصوفية والجهادية أكثر ما تظهر في الموقف الواحد وسبعين (71) حيث أن "جهاد النفس على وجه المخصوص وحد محدود ووقت معين، وهو ألا يكون إلا في سبيل الله أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية مصداقا لقوله تعالى: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم" أي قاتلوا النفوس التي اطمأنت وأذعنت ولا سكنت تحت الأوامر الإلهية ما دامت على حالتها من عدم الإذعان وإظهار العصيان، فإذا تركت العصيان وألقت السلام وصارت تبادر لامتثال الأوامر والنهي فاتركوها ولا يجوز حينئذ جهادها، كالكافر الحربي إذا أذعن لأداء الجزية يحرم قتاله بعد ذلك كما قال تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[2].

ولهذا "فالعارفين لما اطمأنت نفوسهم وسكنت تحت الأمر والنهي وأذعنت لأداء ما عليها من حق الحق والخلق تركوها من غير جهاد ووضعوا عنها أصرها والأغلال التي كانوا يحملونها إياها في وقت جهادهم وبدايتهم" مستدلا بقوله: "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم" وصاروا أول خير وإحسان يفعلونه مع أنفسهم، فإنها أقرب إليهم والأقربون أولى بالمعروف".

[1] سورة يونس، الآية 261.
[2] سورة التوبة، الآية 29.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

ويظهر المعنى العملي في مجاهدة النفس من خلال فهمه لقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[1] أي الذين بارزوا أنفسهم بالمجاهدات والرياضات فينا أي بسبب الوصول إلينا وإلى جنة معرفتنا ومجاهدتنا، "لنهدينهم" لنعرفهم "سبلنا" الطرق الموصلة إلينا، وقد ورد له وارد أيام السلوك بقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾[2]، أن المراد من هذا الإلقاء الحث على المجاهدة والرياضة والمراد الجهاد الأكبر، "أي ابذلوا جهدكم وطاقتكم في طلب معرفته تعالى الوصول إليه مستعينين على ذلك بأموالكم، قيل لذي النون -رضي الله عنه- "أن فلانا له مال كثير ولا يخرج منه شيئا في وجوه البر، وهو يصوم النهار ويقوم اليل، فقال مسكين ترك حاله ودخل في حال غيره".

و"أنفسهم" أي جاهدوا مستعينين بأنفسهم، فإن النفس مطية السالك في سيره إلى الله -تعالى- ونعمت المطية لمن وفقه الله وهداه رشده في سبيل الله، أي في طريق الوصول إلى الله -تعالى- ومعرفته.

أما المعنى الصوفي المحض للعمل يفهمه "الأمير" من قوله تعالى: "فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى" يعني أعطى نفسه وسلمها لمشتريها بعقد "عن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم" فاستعملها عمليا فيما أمره به مشتريها وحاد بها عمليا كذلك -عما نهاه عنها مالكها واتقى بنفسه كل مكروه- وليس ذلك إلا بتصريفها فيما أراد مالكها ويرضاه من الأعمال، لا فيما يريده البائع ويهواه من الأعمال "صدق بالحسنى" الطريقة المثلى طريقة الأنبياء وورثتهم، تصديق ما وهبهم الله من النبوة والولاية وما يتبع ذلك ويلزم من المعارف والعلوم الخارجة عن أطوار العقول والأقيسة والأنظار، "فسنسيره لليسرى" يعني نستعمله في الأسباب العملية الموصلة إلى النجاة بمعرفة بالله تعالى.

﴿ألا إن أولياء الله﴾[3] "فالولاية مكتسبة بالعمل والاكتساب افتعال وهو طلب الشيء بقوة واجتهاد وعليه فالعمل لأجل تحصيل الولاية التي معناها القرب من الله -تعالى-

[1] سورة العنكبوت، الآية 69.
[2] سورة الحجرات، الآية 15.
[3] سورة يونس، الآية 62.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

برفع الحجب وإخلاص العبودية إليه وصدق التوكل عليه والانحياش ظاهرا وباطنا إليه، ليس بعلة قادحة في العبادة"[1] والإخلاص واجب بإجماع فالقصد من العمل هو معرفة الله، وما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب، وأما إذا قصد بالولاية ظهور الخوارق والكرامات وانتشار الصيت وإقبال الخلق هذا لا يشك أحد أنه علة بل يعتبره "الأمير" من الشرك.

وقد ألقي إليه أن بداية الولاية، أي التوفيق إلى طلبها موهبة لأنها حال من الأحوال ومواهب ووسطها اكتساب لأنه جد واجتهاد وركوب أهوال ورياضات ومجاهدات وآخرها -وليس آخر نهايتها- ولا نهاية- قرب من الحق -تعالى- قرب معنوي، وليس ذلك إلا برفع حجاب الجهل، وإلا فالحق أقرب إلينا من حبل الوريد في بعدنا إلا الجهل بالعمل ولا قربنا إلا العلم والعمل، و نجد ذلك بينا في قوله تعالى: "ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به..."[2] أي أزلت عنه حجاب الجهل، فعرف الأمر على ما هو عليه لأنه حدث شيء لم يكن، والحجاب يرفع عن المتقرب بالنوافل أي طالب القرب من الله -تعالى- وهذه أول مراتب الولاية، وفي ذلك دلالة صريحة وواضحة على ضرورة العمل وفعالية السلوك في بداية الطريق.

ويظهر اعتدال "الأمير" في سلوك الطريق ووسطيته في الفهم في تشنيعه على أولئك المنتسبين إلى الطريقة الجهال بالشريعة ففي قوله تعالى: "ولا تعتدوا" نهي عن قتال النفس على غير الحد المشروع وعن التجاوز والتفاني في ذلك كمن يجاهد نفسه بالرهبانية وبأمور نهى الشارع عنها، وفي الخبر "لا رهبانية في الإسلام" و"فمن رغب عن سنتي فليس مني" ففي إتباع السنة قولا وعملا وحالا أعظم جهاد للنفس.

ويتداخل المعنى الصوفي والمعنى الجهادي في فلسفة "الأمير" في فهمه لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية" يقول: يريد الرسول -صلى الله عليه وسلم- بطريق الإشارة أنه لا يصح ولا يستقيم لمن فتح الله عين بصيرته وأراه سريان الأحدية بلا سريان وقيام القيومية على كل ذرة من ذرات الجود، ورؤية الوجود

[1] الموقف 67، ص 200.

[2] حديث قدسي.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

الحق -تعالى- في كل شيء من غير حلول ولا اتحاد أن يهجر شيئا من المخلوقات، لأنها كلها شعائر الله"[1]، "ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب" لكن مع هذا الشهود وعدم الهجرة لشيء، لابد من الجهاد و النية أي المجاهدة مع القصد، أي الجمع بين شهود الحقيقة وإجراء أحكام الشارع من تحسين ما حسنه وتقبيح ما قبحه حكمة و عدلا.

ورغم أن "الأمير" أعطى معاني باطنية للجهاد الظاهر للعدو أحيانا ومعاني قتالية حربية لمجاهدات النفس الباطنية أحيانا أخرى، في تناسق جدلي بين ثنائية ظاهر/باطن إلى درجة أن مفهوم "العمل" كان يتخذ دلالة واحدة من خلال تداخل عناصر التجربتين، إلا أنه يرى أن المجاهدات الباطنية أشرف وأولى وأحق من مجاهدة العدو ومقاومته، مستثمرا في ذلك ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" أو إلى الغزوة الكبرى -في رواية أخرى- **فلماذا سمي جهاد العدو بالأصغر رغم ما فيه من إهلاك النفس وتعريفها للموت ولماذا سمي جهاد النفس بالأكبر رغم ما فيه من تهذيب لها بالتزكية والتخلية والتحلية ودون تعريفها للموت؟**

يرى "الأمير" لذلك عدة أسباب:

1. جهاد العدو والمعتدي لا يكون خالصا مخلصا من الشوائب المفسدة والحظوظ المبعدة إلا بجهاد النفس وتهذيبها وتزكيتها، وإلا فلا يخلص جهاد المجاهد -بل ولا عمل من الأعمال الصالحة ما دامت النفس حية متلطخة بالخبائث، فجهاد النفس أكبر لكونه شرطا في صحة جهاد العدو الأكبر والشرط مقدم، فهو أكبر من المشروط لأن قبوله وصحته بوجوده مربوط.

2. سمي جهاد العدو أو المعتدي أصغرا باعتبار مقتحميه الخائضين فيه، فإنه ليس كل من قاتل مجاهدا حقيقة، لأن مصابرة العدو تكون من البر والفاجر، ولما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- "عن الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل ليرى مكانه والرجل يقاتل ليذكر" وشتى الأصناف الذين تلبسوا بالجهاد ظاهرا، قال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله فلا كل مقاتل للعدو سعيد، ولا كل مقتول فيه شهيد.

[1] الموقف 80.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

أما جهاد النفس أكبر لأنه جهاد مخصوص بقوم مخصوصين، اهتدوا بأنوار الهداية وسبقت لهم من الحق العناية فلا يخوض غمرات هذا الجهاد إلا موفق سعيد على الأرض وهو شهيد.

3. سمي جهاد العدو المعتدي بالأصغر، لأن القتال فيه ليس مقصودا للشارع بالذات، فالمقصود ليس إهلاك مخلوقات الله وإعدامهم وتخريب لبلاده، فإن ذلك ضد الحكمة الإلهية، وإنما المقصود فقط دفع شر المعتدي قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض"[1]، بخلاف جهاد النفس وتزكيتها فإنه مقصود لذاته، إذ في جهادها تزكيتها وفي تزكيتها خلاصها ومعرفة ربها والمعرفة المقصودة بالحب الإلهي في الإيجاد " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، قال **ابن عباس** إلا ليعرفونني، إذ العبادة عمل والعمل فرع من المعرفة، ولا ريب أن المقصود لذاته أكبر من المقصود لغيره.

ويمكننا مقاربة هذا النص الذي يوضح هذه الأفضلية بنص آخر نجده عند **"عبد القادر الكيلاني"** في كتابه "الغنية لطالبي طريق الحق" يقول: "وجهاد العدو جهاد ظاهر بالسيوف والرماح، وممدك فيه الملك والأعوان ورجائك فيه دخول الجنان فإن قتلت في مجاهدة العدو كان جزاؤك الخلود في دار البقاء وإن قتلت في مجاهدة النفس ومخالفتك إياها بفناء أجلك واحترام منيتك، كان جزاؤك رؤية وجه رب العالمين عند اللقاء، فإن قتلك العدو كنت شهيدا، وإن قتلك الشيطان بمتابعتك إياه والانقياد لأوامره كنت من قرب الملك الجبار طريدا، فجهاد العدو نهاية له وفناء، وجهاد النفس لا غاية له ولا منتهى، قال تعالى: "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" يعني الموت واللقاء"[2].

بعد هذه القراءة المختصرة لنص "المواقف" للأمير عبد القادر؛ يمكننا أن نلتمس ذلك التداخل الضمني حتى على مستوى المصطلحات والأدوات والمفاهيم؛ بين تجربة سلوكية/باطنية من جهة وتجربة جهادية/حربية ضمن تجربة واحدة متكاملة،فقد تبنى الأمير طريق ﴿التصوف﴾قبل الانخراط في تجربته الجهادية بكثير، بل كان للذوق والالهام

[1] سورة الحج، الآية 40.

[2] الكيلاني عبد القادر ابن أبي صالح " الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل – في الأخلاق والتصوف والآداب الاسلامية-"، وضع حواشية صلاح بن عويضة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 207.

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

والالقاء دورا كبيرا في استراتيجياتها السياسية وخططها الحربية/العسكرية من جهة، كما أن المعارك والحروب التي كان يخوضها دفاعا عن الوطن،كانت حافزا حقيقيا ورافدا مغذيا من جهة أخرى، لتلك الأحوال والمقامات التي كان يعايشها من خلال تجربته الفردية/الباطنية.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. الجزائري عبد القادر،المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف،تح:عبد الباقي مفتاح ،دار الهدى، الجزائر،جزئين،ط1 ،2005.
3. فؤاد صالح، الأمير عبد القادر، متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.
4. محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و تاريخ الجزائر، ج 2.
5. الكيلاني عبد القادر ابن أبي صالح " الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل – في الأخلاق والتصوف والآداب الاسلامية-"، وضع حواشية صلاح بن عويضة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
6. القشيري عبد الكريم ،الرسالة القشيرية ،نشر:عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ،ط1، بيروت،1957